

كتب بالإنكليزية

حماس: دليل المبتدئ

Hamas: A Beginner's Guide
Khaled Hroub
London: Pluto Press, 2006.

دراسة "حماس": مشروع خالد الحروب الفكري

صدم فوز حركة "حماس" في الانتخابات التشريعية الأخيرة الأوساط السياسية والثقافية في الغرب. وقد ساهم فوزها في زيادة حجم الأعلام الغربية التي تكتب عنها. لكن هذه الكتابات بدت كمحاولة لإعادة إنتاج مقاربات سابقة قدمتها كحركة "إرهابية" تتلذذ بـ "قتل المدنيين". وهي "غير ديمقراطية، ولاسامية، ومعادية للسلام، وجزء من تنظيم جهادي عالمي يسعى للانقضاض على الغرب...". مع ذلك فقد أعدت دراسات متحررة من وطأة المقاربات الأمنية والسياسية التي حكمت النتاج الفكري الغربي بشأن حركة "حماس". وخرجت أصوات متزنة تنادي بضرورة إعادة النظر في الصورة النمطية المشوهة وغير الحيادية والمأزومة التي قدمتها الدراسات الغربية عن الحركة، وتدعو إلى تبيان صورتها الحقيقية، بحلوها ومرها، بكل تجرد وحيادية وموضوعية ونزاهة. وما احتضان مؤسسة "بلوتو برس" لكتاب "حماس" هذا، على الرغم من كونه كاتباً "شرقياً يكتب من الغرب"، إلا تعبير عن حالة "نضالية" في المشهد الثقافي الغربي تكافح من أجل الانعتاق من الأحكام المسبقة والمختزلة والكتابة المدفوعة بنيات مبيتة معادية لكل ما هو إسلامي، وتسعى لتحليل الوقائع كما هي لا كما يتمناها هذا الطرف أو ذلك.

جاء كتاب خالد الحروب "حماس: دليل المبتدئ"، الصادر في لندن سنة 2006، كسباحة عكس التيار. ففي خضم بحر من الأدبيات الغربية المعادية للحالة الإسلامية في فلسطين، قدم المؤلف قراءة مغايرة. وعلى الرغم من علمه بأن ما أقدم عليه كان، وما زال إلى حد ما، يعد انتحاراً فكرياً، ومبرراً للطرد من رحمة "آلهة الفكر والثقافة" في الغرب، فإنه قرر المضي قدماً في نحت تصورات عن حركة "حماس"، مستعيناً بستة عشر عاماً أمضاها في رصد مختلف الجوانب المتعلقة بها. فقد كتب لأعوام في أصولها الفكرية وأجندتها السياسية والاجتماعية ونشاطها العسكري، وراجع أدبياتها، ورصد وثائقها، وأجرى مقابلات مع قادتها. وإذا كان من سند آخر فهو ما يطرحه من رؤية نقدية متجردة تقيه الانزلاق إلى هاوية التنظير السياسي. فهو كما قدم نفسه في التصدير ليس "مع حركة حماس أو ضدها". لكنه يكتب عن "حماس الحقيقية" كما هي على الأرض، محاولاً تزويد القارئ الغربي بالمعلومات الأساسية عنها عبر دليل "موضوعي وموجز".

على مدار مئة وسبعين صفحة، وبالاعتماد على التحقيين الزمني والموضوعي، يجيب الحروب عن أكثر من ثلاثة وستين سؤالاً عن حركة "حماس"، ابتداءً من نشأتها ومراحل تطورها، مروراً بأهدافها، واستراتيجيتها، ومواقفها من مختلف القضايا السياسية والفكرية والاجتماعية، وممارساتها العملية، وعلاقاتها المحلية والإقليمية والدولية، وأبرز قادتها، وانتهاءً بتربيعها على رأس الهرم السياسي وظهور ما يعرفه الحروب بأنه "حماس الجديدة".

"حماس" كما يراها خالد الحروب

يضع الحروب بين يدي القارئ خلاصة ما يعتقد بشأن حركة "حماس" تاركاً له حرية الحكم عليها. وفي هذا الصدد يمكن ملاحظة التالي:

أولاً: قدّم المؤلف "حماس" باعتبارها حركة تحرر وطني حصرت نضالها جغرافياً فيما بات يعرف بفلسطين التاريخية. وهي تكافح من أجل التخلص من الاحتلال وإقامة الدولة الوطنية. ويرى أنها "تطور طبيعي لأوضاع احتلالية وحشية وغير طبيعية. ويجب النظر إلى تشدد "حماس" على أنه نتيجة استمرار المشروع الإسرائيلي الكولونيالي على فلسطين" (p. ix). ويؤكد أن الحركة لا تضع الغرب في السلة نفسها مع الاحتلال الذي تعتبره

عدوها الوحيد. لكنها تحملّه، وتحديداً بريطانيا ومن بعدها الولايات المتحدة، مسؤولية ما جرى على أرض فلسطين. ويشير إلى أن "حماس" أصبحت مع مرور الوقت أكثر قدرة على فهم العلاقات الدولية ومواقف مختلف الدول من القضية الفلسطينية. وهي تحاول جاهدة استغلال التناقضات الدولية فيما يخدم مصلحة القضية الفلسطينية.

ثانياً: ناقش الكاتب جدلية الديني والسياسي في الفكر والممارسة عند الحركة، مشيراً إلى أن خصوصيتها تتجلى في تمكنها من نسف نظرية "التعاقب" بين الأسلمة والتحرير، والاستعاضة عنها بنظرية "التزامن". فقد كان من "العبث محاولة تحرير فلسطين من دون الوصول إلى درجة مرضية من الأسلمة للمجتمع الفلسطيني... وما فعلته (حماس) داخل هذا الفكر التقليدي هو كسر تخيل التعاقب والبرهان على أن في الإمكان النضال من أجل تحقيق العمليتين معاً" (p. 28).

ثالثاً: لكن لمن تبدو الغلبة داخل "حماس"؟ هل هي للديني أم للسياسي؟ على الرغم من الجذور الدينية للحركة، فإن السياسي يتغلب على الديني داخلها. فهي تتبنى المفاهيم الغربية في خطابها السياسي، وتحديد أولوياتها الوطنية، وعملها التنظيمي والإداري، وممارستها السياسية. كما أنها حركة عصرية تدير شؤونها الداخلية بديمقراطية، وتختار قاداتها بطريقة ديمقراطية... ولا يوجد نظام تسلطي داخلها" (p. 64). وهي متصالحة مع المفاهيم المعاصرة، كحقوق الإنسان والمواطنة وسيادة القانون وحكم الأغلبية والمساءلة.

رابعاً: تركز حركة "حماس" على براغماتية سياسية تؤهلها اتخاذ قرارات استراتيجية تقترب فيها من مفهوم ومعايير المجتمع الدولي الخاصة بحل القضية الفلسطينية. ولا يستبعد الحروب اعتراف "حماس" بإسرائيل وقبولها بفكرة الدولتين (p. 40).

خامساً: ميّز الحروب بين "حماس" وحركات الإسلام الجهادي، وعلى رأسها القاعدة، مؤكداً وجود "اختلافات كبيرة بين الحركتين من حيث الأهداف والوسائل ومساحة المعركة، وأيضاً في طبيعة كل منهما..." (p. 101).

سادساً: يرى الحروب أن الانتخابات التشريعية الأخيرة وما أفرزته من نتائج تشكل انعطافاً تاريخياً نقلت "حماس" من موقعها التقليدي كمعارضة إلى مربع الحكم والسلطة. ويعتبر أن البرنامج الانتخابي لكتلة التغيير والإصلاح، والبيان الوزاري الأول الذي تلاه رئيس الحكومة إسماعيل هنية، "حدداً حدود التجدد في الفكر الحمساوي" (p. 139). وبحسب الحروب فإن البرنامج الانتخابي جسد "التغييرات والتجارب التي بلورت طبيعة الحركة طوال السنوات السابقة، وبيّن كيف طورت وعبّأت وخطابها وأولوياتها... لقد أسس برنامج التغيير والإصلاح لـ (حماس) جديدة" (p. 139). واعتبر الحروب أن البيان الوزاري على درجة عالية من الأهمية، "إن قدم (حماس)" للعالم بلغة جديدة تميزت بالبراعة والحدز" (p. 145).

سابعاً: قدم الكاتب مجموعة من الملاحظات النقدية في شأن عدد من الاستراتيجيات والمواقف التي تبنتها الحركة وكان لها نتائج سلبية فيما يتعلق بالقضية الفلسطينية. وقبل عرض بعضها لا بد من الإشارة إلى أن الكتاب موجه إلى القارئ الغربي، الأمر الذي قد يقلل حدة النقد الموجه إلى الحركة، وهو ما يمكن ملاحظته فيما يكتبه الحروب بالعربية. فعلى سبيل المثال، هاجم عمليات "حماس" داخل الخط الأخضر ومنحها أقباح الأوصاف، فهي "شريرة وليس لها أي سند أخلاقي... وأضررت بسمعة الحركة وبالفلسطينيين" (p. xvii). لكنه ساهم في شرح مبرراتها للقيام بهذه العمليات. كما قدم نقداً واضحاً لمواد الميثاق، لكنه بدأ أقرب إلى التحليل الاعتدالي، فقد خطّ الميثاق "فرد وعمم من دون مشورة أو إجماع أو تنقيح. لقد كان معدّ الميثاق من الحرس القديم في حركة الإخوان المسلمين في قطاع غزة، وهو من المنقطعين كلياً عن العالم الخارجي" (p. 33). وهنا لا بد من الإشارة إلى أن الكاتب قدم في مقالات أخرى بالعربية نقداً شديداً للميثاق معتبراً إياه عبأ على المشروع الوطني ("الحياة"، لندن، 2007/5/9).

أثار الكتاب سجلاً فكرياً في الأوساط الثقافية الغربية والإسرائيلية على حد سواء. وانقسمت المراجعات النقدية بين مؤيد ومعارض له. فعلى سبيل المثال، أعرب البعض عن إعجابه بمساهمة الحروب. فكان بحسب رون جاكوب (موقع زي نت، 3 آذار/مارس 2007) "... من أفضل ما كتب بالإنكليزية عن حركة (حماس)، فهو بعيد عن التحيز ومتوازن ويخلو من الدعاية... وقد أيده في ذلك موقع سوشال ريفيو الذي أشار في مراجعته المنشورة بتاريخ كانون الثاني/يناير 2007، إلى أن الكتاب "مهم وجاء في وقته... وهو ضروري للذين يريدون تكوين صورة لـ "حماس" بعيداً عن وجهة نظر الإمبرياليين وحلفائهم". أمّا موقع كابو فقد أكد في مراجعته، المنشورة بتاريخ 30 تشرين الأول/أكتوبر 2006، أن الكتاب يزود القارئ بجملة حقائق مهمة عن حركة "حماس"، ويعطيه تصوراً واضحاً لتاريخها ومعتقداتها وأجندتها السياسية.

وقد أطلق العديد من الكتاب انتقادات حادة للكتاب، إذ اعتبر بروس وايتزمن في مراجعته المنشورة في صحيفة "هآرتس" بتاريخ 11 كانون الثاني/يناير 2006، أنه "يحمل رؤية وردية لحركة (حماس)، وهو متحيز وغير موضوعي، ويهدف إلى تسويق حركة إرهابية في الأوساط الغربية." وقد شاطره الرأي ذاته بيتر بيرنت في مراجعته في "اسكتلند أون صندي"، المؤرخة 8 تشرين الأول/أكتوبر 2006. في حين أعرب نهاد إسماعيل عن شكه في أن "حماس" تجاوزت تصليبها، وأشار في موقع بلوتوبوكس، بتاريخ 24 تشرين الثاني/نوفمبر 2006، إلى أن الحركة عاجزة عن استيعاب مختلف أطراف الشعب الفلسطيني. وهنا لا بد من الملاحظة أن الهجوم على الكتاب ينبع من خشية بعض الكتاب الغربيين، الموالين للاحتلال الإسرائيلي، أن يساهم مع غيره من الإبداعات في تغيير الصورة السلبية التي رسموها للحركة في ذهن القارئ الغربي، وما لذلك من تداعيات سياسية متعددة على موقف الدول الغربية من القضية الفلسطينية والحركات الفلسطينية المقاومة.

وعلى الرغم مما للكتاب من أهمية، بصفته مساهمة عربية تقدم الذات للآخر بحيادية وبعلمية نادرة وعبر قلم متجرد، فإنه واجه مصير كثير من الإبداعات العربية التي لا يلتفت العرب إليها، فتبقى حبيسة النخب ورفوف المكتبات. ومع هذا، هل كل ما قاله الحروب عن "حماس" هو عين الحقيقة؟

لقد غفل الحروب عن الإشارة إلى تأثير نجاح الثورة الإيرانية ومقاومة الأفغان للغزو السوفياتي في التسريع في ولادة حركة "حماس". كما أنه ردد من دون تمحيص ما اعتقد بعض المحللين من أن "حماس" تفاجأت بفوزها الساحق، ولم يعر اهتماماً للتقارير الصحافية التي أشارت إلى أن الحركة خطت لهذا الفوز، كما أنه لم يواكب ما كان يقوله قادتها قبل بدء المعركة الانتخابية من أنهم مستعدون لتأليف الحكومة وتسلم الوزارات (هذا ما كان يصرح به، على سبيل المثال، الدكتور محمود الزهار لأتباع "حماس" في سجن النقب قبل الانتخابات بأشهر).

كرس الحروب الفصل التاسع للحديث عن نماذج من قادة الحركة في قطاع غزة والضفة الغربية والخارج. وفي اعتقادي لا يوجد ما يبرر تجنبه الحديث عن أي من القيادات النسوية الحمساوية ذات التأثير، وهن موجودات في أغلبية قطاعات الحركة، والاستكفاء بما أورده عن الدكتورة مريم صالح (p. 78) وهو لا يتعدى بضعة أسطر.

ونريد أن نشير إلى أن الكاتب أحسن في اختيار الغلاف بما يحوي من إحياءات ودلالات نراها ماثلة في الصورة والألوان. أخيراً، أدعو دور النشر إلى ترجمة الكتاب إلى العربية كي تعم الفائدة، وأنصح للقارئ ألا يفوت الفرصة لقراءة كتاب سيجد فيه الفائدة والمتعة.

عوني فارس

باحث فلسطيني

مقيم برام الله

مجلة الدراسات الفلسطينية، جميع حقوق النشر وإعادة التوزيع محفوظة لمجلة الدراسات الفلسطينية، ولا يمكن نشرها أو توزيعها إلكترونياً إلا بإذن من رئيس تحرير المجلة وذلك عبر الكتابة إلى العنوان البريدي التالي: majallat@palestine-studies.org
يمكن تحميل هذه المقالة أو طبعتها للاستخدام الفردي وعند الاستخدام يرجى ذكر المصدر:
http://www.palestine-studies.org/ar_index.aspx